المفاهيم الأساسية للنظرية
الخليلية الحديثة

محمد صاري
قسم اللغة العربيّة وآدابها
جامعة عنّابة

الملخص

عملت النظريّة الخليليّة الحديثة على إعادة قراءة وبعث الآراء والاجتهادات النظريّة للنحاة العرب الأوائل وعلى الأخص مدرسة الخليل بن أحمد الفراهيدي، التي تميّزت باعتماد المنطق الرياضي في وصف اللغة، المبدأ الذي تتبنّاه اليوم أحدث النظريّات اللسانيّة. هذا المقال يعرض لأهم المفاهيم التي يقوم عليها هذا الدرس الخليلي على رأسها مفهوميّ الأصل والفرع ومن ثمّ مفهوم العامل الأصيل.

الكلمات المفاتيح

الوضع- الاستعمال - الأصل- الفرع - العامل.

Résumé

La théorie néo-khalilienne est basée sur une nouvelle lecture de l'œuvre des anciens grammairiens arabes, à savoir en particulier l'école d'al-Ḫalīl Ibn Aḥmad, caractérisée par l'usage de concepts mathématiques dans la description de la langue, usage actuellement consacré par les théories linguistiques les plus récentes. Par ailleurs, l'auteur développe à travers cet article les principaux concepts sur lesquels s'appuie l'école d'al Ḫalīl, notamment les concepts de *aṣl* et *far'* ainsi que le concept original de régissant.
Mots clés
Code - usage - *aṣl* - *far'* - régissant.

Abstract

The neo-khalilian theory is based on a new reading of the works of the first Arab grammarians and the Ḫalīlian school in particular. This latter is characterised by the use of the concepts of mathematics for the description of language which have also been adopted by the most recent linguistic theories. Thus, the author develops through this paper the main concepts on which is based the school of Ḫalīl, namely the main concepts of *aṣl* and *far'*, as well as the original concept of governing element.
Keywords
Code - use - *aṣl* - *far'* - governing element.

1. مقدمـــة

تهدف هذه الدراسة إلى تعريف الباحث العربي في علوم اللسان بالأهمية التي تكتسيها نظرية النحاة العرب، لا من حيث إنها ما تزال ذات قيمة كبيرة من الناحية العلمية والنظرية، بل من حيث إنها يمكن أن تستثمر مفاهيمها في الميادين التطبيقية لحل مشكلات لغوية وتربوية تعترض سبيل ترقية استعمال اللغة العربية في المجالات الحيوية والدراسة عبارة عن قراءة جديدة للتراث النحوي مقارنة بالنزعات والطروحات الحديثة في العالم العربي. كما تعد امتدادا منتقى للآراء والنظريات التي أثبتها النحاة العرب الأولون، وبخاصة "الخليل بن أحمد". فهي في الواقع نظرية ثانية (Métathéorie) لأنها في الوقت نفسه تنظير وبحث في الأسس النظرية الخليلية الأولى.

واهتمامي بهذه النظرية نابع مما تميزت به أفكارها من أصالة وتجديد، إذ يرجع لها الفضل في:

- تنبيه الباحثين لضرورة الاهتمام بشخصيات علمية فذة في تاريخ الفكر اللغوي العربي.
- اقتراحها لمصطلحات جديدة وإحياؤها لمصطلحات أصيلة.
- تفسيرها العميق لكثير من المفاهيم النحوية والبلاغية التي استغلق فهمـــها على كثيـــر من الدارسين.
- مساهمتها في التعريف بالتراث الأصيل وإحيائه وتسهيل الاطلاع عليه.
- تنبيه الباحثين الذين اشتغلوا بموضوع تيسيـــر القواعد النحوية إلى ضرورة التمييز الحاسم بين النظرية النحوية العربية القديمة وتطبيقاتها التربوية.
- إثبات أن المفاهيم والمبادئ التي قامت عليها النظرية اللغوية العربيـــة القديمة، ليست غريبة، ولا هي ملفقـــة أو دخيلة على الدرس اللغـــوي كما يزعم المفتونون بالمنـــاهج الغربية الحديثة.

2. المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية[1]

اتجهت النظرية الخليلية الحديثة[2] إلى إعادة قراءة التراث اللغوي العربي الأصيل، والبحث عن خباياه، لا حبّا للقديم في ذاته، ولا محافظة من أجل المحافظة[3]، ولكن بغية التنبيه إلى الطفرة

[1] تضم جماعة من الباحثين، ويعد الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" (الجزائر) من أبرز علمائها الذين أسسوا لها ودعوا إليها. لقد عكفت هذه النظرية منذ حوالي أربعين سنة تقريبا تدعو معشر اللسانيين والباحثيـــن في العالم العربي إلى قراءة التراث بمنظار علمي بعيد عن التعسف في الاستنطاق، والاعتباط في التأويل. وبفضل جهود علمائها وباحثيها عرّفت الدارسين بخصائص علوم اللسان العربي، ومضامينه النوعية انطلاقا من مقولات اللسانيات الحديثة. فأثبتت الحلقة المفقودة التي تجاهلها الغربيون عندما أرخوا للفكر اللساني البشري، والتي تتمثل في مستخلصات ثمانية قرون أو تزيد من مخاض التفكير اللغوي عند العرب لاسيما القرون الخمسة الأولى من الهجرة، التي أفرزت نظرية شمولية في الظاهرة اللغوية.

[2] استوحيت كثيرا مما جاء في هذه الدراسة من البحوث المختلفة التي تخص النظرية الخليلية ومفاهيمها الأساسية، والتي ظل الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" يُعرّف بها في المناسبات العلمية الوطنية والعربية والغربية منذ سنوات عديدة.

[3] وجه للدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" في إحدى المحاضرات السؤال الآتي: هل أنتم من المحافظين؟ فأجاب: "لست محافظا ولا مجددا، ولكن أبحث عن المفيد. اكتشفنا في القديم شيئا عظيما لم نجده في الحديث، ولو اكتشفناه في الحديث لأخذنا به".

التلقائية المفاجئة[4] التي أحدثها "سيبويه" وشيوخه وتلاميذه في تاريخ علوم اللسان البشري بعد أن تحامل عليهم كثير من الدارسين الذي تأثروا بالمناهج الغربية الحديثة[5].

لقد سعت النظرية الخليلية منذ ظهورها إلى بعث الجديد عبر إحياء المكتسب فتجاوزت مرحلة الاقتباس السلبي عند نقلها عن الغرب، أو عند نشرها عن العرب[6]. وتنطلق هذه النظرية في قراءتها للتراث وتأصيل أفكاره من منطلقين أساسيين هما[7]:

1 – لا يفسر التراث إلا التراث، فكتاب "سيبويه" لا يفسره إلا كتاب "سيبويه". ومن الخطأ أن نُسقط على التراث مفاهيم وتصورات دخيلة تتجاهل خصوصياته النوعية.

2 – أن التراث العربي في العلوم الإنسانية عامة واللغوية خاصة ليس طبقة واحدة من حيث الأصالة والإبداع، فهناك تراث وتراث!

فالتراث الذي تعلقت به النزعة الخليلية الحديثة هو التراث العلمي اللغوي الأصيل الذي تركه أولئك العلماء المبدعون الذين عاشوا في زمان الفصاحة اللغوية الأولى، وشافهوا فصحاء العرب، وقاموا بالتحريات الواسعة النطاق للحصول على أكبر مدونة لغوية شاهدها تاريخ العلوم اللسانية. وأما الذين جاؤوا من بعدهم فكانوا عالة عليهم، إذ ضيقوا حدود النحو الواسعة، واستبدلوا مفاهيم القدماء الإجرائية النشطة بمفاهيم أخرى جامدة تأملية[8]، مع بقاء نفس الألفاظ التي تدل عليها في الغالب[9].

لقد اعتمد العلماء العرب، ورائدهم في ذلك الخليل، في تحليلهم للظاهرة اللغوية عددا من المفاهيم والمبادئ اللغوية التي سيكون لها دور عظيم في تفسير العلاقات المعقدة المجردة الكامنة وراء اللغة، ومن ثمة في تطوير معلوماتنا حول الظواهر اللغوية[10]. ومن الغريب جدا – كما يقول الدكتور الحاج صالح – أن تكون هذه الأعمال التي لا تضاهيها إلا ما أبدعه العلماء الغربيون في أحدث أعمالهم، مجهولة تماما في كنهها وجوهرها عند كثير من الدارسين والاختصاصيين

---

4 مفاجئة حقا، لأنها حدثت في ظرف زماني قياسي جدا، فالدرس اللغوي عند العرب نضج واكتمل منهجا وأصولا ومسائل في سرعة معجزة. انظر، د عبد الرحمن الحاج صالح، النحو العربي ومنطق أرسطو، مجلة كلية الآداب، ع1، جامعة الجزائر، 1964، ص73.

5 الذين نبذوا النحو والصرف بدعوى أنهما "معياريان"، وأنهما بعيدان عن التصور العلمي للغة الذي ظهر في زماننا (موضة البنوية).

6 عبد الرحمن الحاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، وقائع ندوة تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، ط1؛ المغرب: دار الفكر الإسلامي، 1987.

7 عبد الرحمن الحاج صالح، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية، اتحاد الجامعات العربية، ندوة تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية.

8 المقصود بالجانب التأملي، هو الذي يمت بصلة إلى الفلسفة والمنطق اليوناني، والتقسيم والتصنيف الأرسطي الذي اهتم به النحاة المتأخرون.

9 فأكثر المصطلحات اللغوية، كما يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، لم يتغير لفظها عند المتأخرين، إنما الذي تغير هو محتواها، ومن ذلك مثلا: "لفظة"، "كلمة"، "حرف"، "القياس"، "المبني"، "المبني عليه"، "باب"، "حد"، "مثال"، "بناء"، "وصل"، "إدراج"، "أصل"، "فرع"، ... انظر عبد الرحمن الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، ص27.

10 عبد الرحمن الحاج صالح، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية.

المعاصرين[11]، ومن أهم هذه المبادئ نذكر المفاهيم الآتية:

1.2. مفهوم الاستقامة

يميز "سيبويه" في الكتاب بين السلامة الراجعة إلى اللفظ، والسلامة الخاصة بالمعنى، كما يميّز أيضا بين السلامة التي يقتضيها القياس (أي النظام العام الذي يميز لغة من لغة أخرى) والسلامة التي يفرضها الاستعمال الحقيقي للناطقين،وذلك في قوله في باب "الاستقامة من الكلام والإحالة": "فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسآتيك غدا، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا، وسآتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حَمَلْتُ الجَبَل، وشربتُ ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيدٌ يأتيك وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"[12].

فواضح من هذا الكلام أن "سيبويه" يحدد مفهوم السلامة وعلاقتها باللفظ والمعنى من ناحية، والقياس والاستعمال من ناحية أخرى. فهناك المستقيم الحسن، والمستقيم القبيح، والمستقيم المحال، ويمكن صياغة هذه المعاني بشكل آخر أكثر وضوحا:

- فالمستقيم الحسن = السليم في القياس والاستعمال جميعا.
- والمستقيم القبيح = السليم في القياس وغير السليم في الاستعمال.
- وأما المستقيم المحال = سليم في القياس والاستعمال، غير سليم من حيث المعنى[13] *.

ومن ثم جاء التمييز المطلق بين اللفظ والمعنى، ومعنى ذلك أن اللفظ إذا حدد أو فسّر باللجوء إلى اعتبارات تخص المعنى فالتحليل هو تحليل معنوي، أما إذا حصل التحديد والتفسير على اللفظ دون أي اعتبار للمعنى فهو تحليل نحوي، والخلط بينهما – كما يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح – يعتبر خطأ وتقصيرا "وقد بنى على ذلك النحاة أن اللفظ هو الأول، لأن هو المتبادر إلى الذهن أولا ثم يفهم منه المعنى، ويترتب على ذلك أن الانطلاق في التحليل يجب أن يكون من اللفظ في أبسط أحواله وهو الانفراد"[14].

2.2. مفهوم الانفراد

ينطلق النحاة الأوائل في تحليلهم للغة من "الاسم المفرد" باعتباره النواة أو الأصل الذي تفرع

---

11 عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص367.

12 سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط1؛ بيروت: دار الجيل، 1991، ج1، ص25، 26.

13 عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع السابق، ص379.

* ههنا معان يمكن صياغتها صياغة رياضية مجردة، وهي معان لم يتوصل إليها المحدثون في اللسانيات ما عدا "تشومكي" عندما ميز بين الجمل النحوية (القواعدية) والجمل غير النحوية، فالمتكلم السامع المثالي في لغة ما يدرك من خلال قوانين محددة (هي المعرفة اللغوية أو قواعد إنتاج الكلام وفهمه أو الآلة المولدة... كما يسميها تشومسكي) الجمل المستقيمة المحالة، والجمل غير المستقيمة في القياس والاستعمال. ولمزيد من المعلومات انظر، د. خليل أحمد عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها منهج وتطبيق، عالم المعرفة، ط1، السعودية، ص56، 57.

14 عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص379.

عنه أشياء أخرى. وقد أطلق "الخليل" على هذا المفهوم مصطلح "الاسم المظهر"[15] (≠ المضمر)، كما أطلق عليه "ابن يعيش" و"الرضي الإستراباذي" مصطلح اللفظة[16].

واللفظة في اللسانيات الخليلية عمادها الوقف والابتداء، فهي أقل ما يُنطقُ به مما ينفصل فيُسكت عنده ولا يلحق به شيء. أو يَبْتَدِئ فلا يسبقه شيء. فما ينفرد وينطلق، أو ما ينفصل ويبتدئ هو صفة الانفراد. ومما تجدر الإشارة إليه، أن كل وحدة لغوية قابلة للانفصال عما قبلها أو ما بعدها من الوحدات؛ بمعنى أن كل وحدة لغوية يمكن الابتداء بها والوقوف عليها حسب موقعها في الكلام.

فمن الألفاظ ما ينفصل ويبتدئ مثل: "الرئيس" في نحو قولنا: "جاء الرئيس" و"الرئيس جاء". ومنها ما ينفصل ولا يبتدئ مثل ضمير "تاء الفاعل" و"نا المضاف إليه في نحو قولنا: "خَرَجْتُ" و"كتابُنا". ومنها ما يبتدئ ولا ينفصل مثل حرف الجر في نحو قولنا: "في التأني السلامة".

ويحمل النحاة "اللفظة" على غيرها من المثل والنماذج فتفرع إلى لفظات هي نظائر للنواة، ولكنها أوسع منها، من خلال تعاقب زيادات قبلية وبعدية عليها دون أن تفقد وحدتها أو تنفرد فيها أجزاؤها، فلا تخرج عن كونها لفظة (أي قطعة واحدة). وسمى النحاة هذه القابلية للزيادة يمينا ويسارا "التمكّن" ولاحظوا أن لهذا التمكّن درجات تترتب كالآتي[17]:

أ – المتمكّن الأمكن، الذي يحمل معناه بداخله ولا يحتاج إلى غيره، ويتمثل في اسم الجنس المنصرف كرجل وفرس وشجرة.

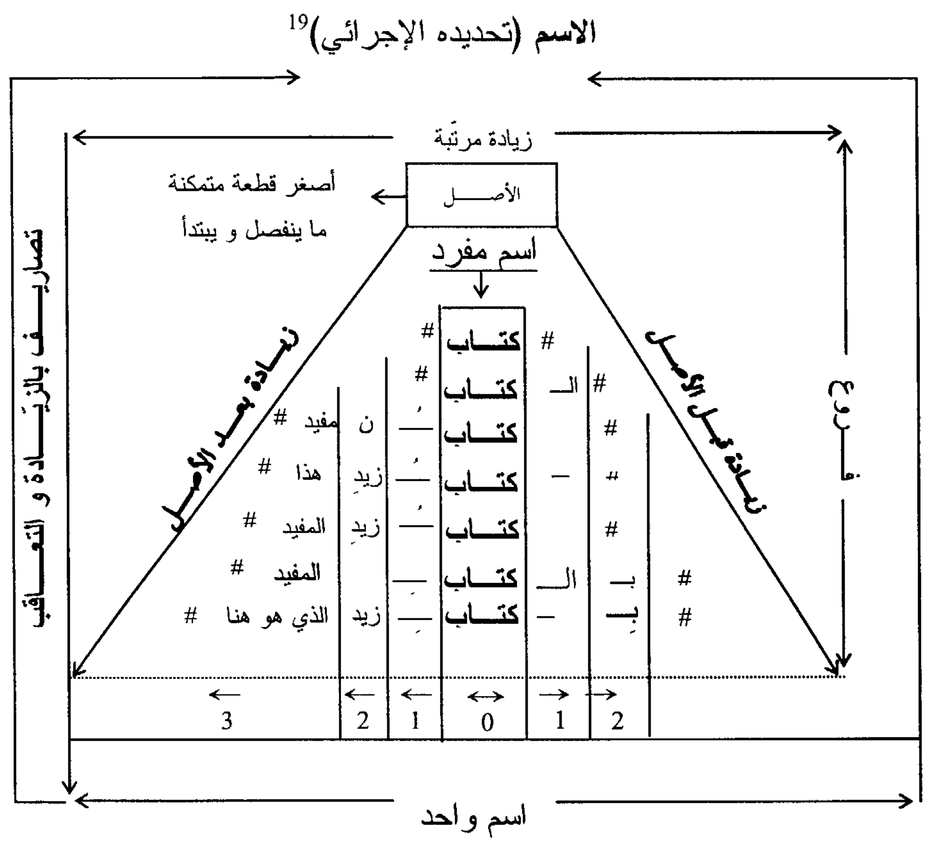
ب – المتمكن غير الأمكن، ويتمثل في الممنوع من الصرف.

ج – غير المتمكن ولا أمكن، ويتمثل في الاسم المبني.

وانطلاقا من التصور السابق لمفهوم اللفظة يحدد د. عبد الرحمن الحاج صالح اللفظة الاسمية تحديدا إجرائيا كما يلي[18]:

---

[15] عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص379، 380.
[16] المرجع نفسه، ص379، 380.
[17] المرجع نفسه، ص379، 380.
[18] المرجع نفسه، ص381.



يتبين لنا من خلال التحديد الإجرائي السابق للاسم ما يلي[20]:

أ - أن التحويل بالزيادة والتعاقب هو الذي يحدد الوحدات في النظرية الخليلية.

ب - أن كل الوحدات المحمولة بعضها على بعض بعمليات التحويل هي نظائر للنواة من حيث إنها وحدات تنفرد أولا ومتفرعة عنها بالزيادة ثانيا.

ج - أن الوحدات المحمولة بعضـها على بعض تكـوّن مجموعة ذات بنية تسمى في الاصطلاح الرياضي بالزمرة (structure de groupe).

وهنا نشير أن العلاج الآلي للنصوص يستلزم مثل هذه الصياغات الرياضية التي تكون على شكل خوارزمات(Algorithmes)[21].

[19] علامة الابتداء والوقف أو علامة الانفصال والابتداء.

[20] عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص382.

[21] نسبة إلى العالم الرياضي العربي الخوارزمي (ت بعد 232هـ) وهي عبارة عن سلسلة من العمليات الجزئية المتناسقة التي يتم بها إجراء العمل على الرتاب والتي يمكن أن تساعدنا مستقبلا مساعدة كبيرة لفهم مجرى العمليات الكلامية، وكيفية انتظام العلم باللغة، وكيف يمكن إدخال بعض هذه المعلومات واستعمالها في العمليات على الرتاب... انظر، مازن الوعر، حول بعض القضايا الجدلية لنظرية القواعد التوليدية التحويلية، مجلة اللسانيات، ع6، الجزائر 1982، ص79.

3.2. مفهوم الكلمة واللفظة

كما سبق وأن أشرنا، أن النحاة الأوائل انطلقوا في تحليلهم للغة من مستوى اللفظة باعتبارها أصغر وحدة من الكلام مما يمكن أن ينفصل ويبتدئ، وهي أقل ما يمكن أن ينطق به مما يصلح أن يكون مبنيا على اسم أو فعل، أو مبنيا عليه اسم آخر أو فعل. وبناء على هذا المفهوم فإن العبارات التالية: رجل، الرجل، مع الرجل، رجل الغد، رجل قام أبوه أمس، الرجل الذي قام أبوه أمس... كل واحدة منها بمنزلة اسم واحد أي "لفظة"[22] بتعبير "الرضي" لا كلمة.

ولقد عَرَّفَ "سيبويه" هذه الوحدة وعبَّر عنها في أماكن عديدة من "الكتاب" بعبارة "كالاسم الواحد" أو "بمنزلة الاسم الواحد"، ومن ذلك مثلا قوله عندما تعرّض لموضوع النعت: "فأما النعت الذي جرى مع المنعوت فقولك: مررت برجلٍ ظريفٍ قبلُ، فصار النعت مجرورا مثل المجرور لأنهما كالاسم الواحد"[23].

أما الكلمة عند النحاة الأوائل فهي أدنى عنصر تتركب منه "اللفظة"، إذ تحدد بالموضع الذي تظهر فيه في داخل المثال (الحد). وعلى هذا فالكلمة كاصطلاح نحوي ليست دائما مورفيما أقل ما ينطق به مما يدل على معنى بل هي العنصر الدال الذي يمكن أن يحذف من (اللفظة) دون أي ضرر أو تغيير للعبارة، كالحذف لحرف الجر من لفظة "بالرجل". فخروجه لا يسبب تلاشي الاسم.

أما العنصر الدال الذي إذا حُذِفَ أو استبدل بشيء آخر أدى إلى تلاشي العبارة التي يدخل فيها "كالنون" في "تَذْهَبُ" و"التاء" في "اقْتَعَلَ"، فهذه مورفيمـــات وليست كلما، لأنها عناصر من مكونات الكلمة، فهي داخلة في صيغتها وليس لها الاستقلال النوعي الذي للكلم[24].

4.2. مفهوم الموضع والعلامة العدمية

إن المواضع التي تتعاقب عليها الكلم، وتترتب فيها مع النواة (أي الاسم المفرد)، بعمليات الوصل (simple concaténation)[25]، هي خانات تحدد بالزيادة التدريجية، إذ تمثل هذه الزيادات التحويلات التفريعية التي يتم من خلالها الانتقـــال من الأصل إلى مختلف الفروع أو العكس (ردّ الفروع إلى أصلها)، وعلى الرغم من الاختلاف الموجود، من حيث الطول والقصر بين العبارات التي تظهر بالتحويل التفريعي في داخل المثال المولد للفظة (schème générateur)؛ (رجل، الرجل، بالرجل، رجل الغد، رجل قام أبوه أمس...الخ.) إلا أنها تُعدُّ عبارات متكافئة باصطلاح الرياضيات، ولا يخرجها ذلك عن كونها لفظة. وبهذه العمليات التحويلية الخليلية يتحدد موضع كل عنصر في داخل المثال، كما في الرسم التالي[26]:

---

[22] تفتقر اللسانيات الغربية إلى مفهوم اللفظة، ولذا اقترح د.عبد الرحمن الحاج صالح على بعض اللسانيين الغربيين أن تسمي (Lexie). انظر، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، ص95.

[23] انظر، سيبويه، الكتاب، ج1، ص421- 433.

[24] عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص379- 382.

[25] المرجع نفسه، ص383.

[26] عبد الرحمن الحاج صالح، "أقائم أخواك" وطريقة تفسيره عند سيبوه والرضي بالاعتماد على مفهومي الموضع

حرف جر	أداة التعريف	النـــــواة الاسمية	علامات الإعراب	التنوين والمضاف إليه	الصفة
→	→	↔	←	←	←
2	1	**0**	1	2	3

وللإشارة فإن المواضع التي هي حول النواة الاسمية يمينا ويسارا[27] تدخلها الزوائد (العناصر اللغوية)، وتخرج منها بعمليات الوصل، وقد تكون فارغة، أي خالية من العنصر لأن الموضع شيء وما يحتوي عليه شيء آخر. وهذا الخلو من العنصر مع بقاء أو ثبات الموضع هو ترك للعلامة وخلو منها. ويطلق د. عبد الرحمن الحاج صالح على هذا المفهوم العلامة العدمية (Expression zéro)[28]، وتختفي هذه العلامة في موضع لمقابلتها لعلامة ظاهرة في موضع آخر، فعلامة التذكير العدمية تقابلها علامة ظاهرة في المؤنث (عالم – عالمة). وعلامة المفرد العدمية تقابلها علامة ظاهرة في التثنية والجمع. وعلامة الابتداء العدمية (التجرد من العوامل) تقابلها علامات لفظية ظاهرة. وتنطبق العلامة العدمية أيضا على التقابل بين الحروف الصوتية، كعدم غنّة الباء في مقابل غنّة الميم وكلاهما له مخرج واحد.

إن هذه الطريقة في تحليل الكلام، واكتشاف البنية الجامعة للكمية الكبيرة من الأنحاء، قد بناها النحاة الأولون على عدد من المفاهيم والتصورات، وعدد من الأساليب في علاج الكلام، فالنحاة العرب كما يقول د. عبد الرحمن الحاج صالح ينطلقون من اللفظ في ظاهره، ولكن لا يتناولون الكلام جملة جملة، وقطعة بعد قطعة، فيقابلوا بينها لإظهار الفوارق من حيث صفاتها الذاتية كما هو الشأن عند البنويين (الانطلاق في التحليل من ظاهر الكلام فقط)، بل يحملون هذا النحو على ذاك حتى يظهر الترتيب والنظم (لا الصفات الذاتية فقط). وعليه فإن مفهوم الموضع، وكذلك المثال لا يوجد مثلهما في اللسانيات الغربية إطلاقا، وهو أعظم فارق يفترق فيه النحو العربي عن اللسانيات الغربية الحديثة[29].

5.2. مفهوم الأصل والفرع

مما لا شك فيه أن المفهوم الذي ينبني عليه لا النحو العربي فحسب، بل علوم العربية كلها

والمثال، انظر كذلك المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص383، 384.

[27] فكل تلك المواضع تُكوِّن مثال الاسم، وحتى لا يقع القياس من الاسم ككلمة مفردة أي مجردة مما يدخل عليها، وبين الاسم مع الزوائد الداخلة عليه أطلق د. عبد الرحمن الحاج صالح على هذا الأخير مصطلح ورد عند "الرضي" و"ابن يعيش" وهو اللفظة الاسمية أو الفعلية.

[28] ويرمز لها بالعلامة ∅، وتعني عدم وجود العلامة الظاهرة، والواقع أن عدم وجود العلامة هي في حد ذاتها علامة. انظر الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، ص34، 35. وكذلك المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص383، 384.

[29] عبد الرحمن الحاج صالح، أقائم أخواك وطريقة تفسيره عند "سيبويه" و"الرضي" بالاعتماد على مفهوم الموضع والمثال، وانظر كذلك النحو العربي والبنوية؛ اختلافهما النظري والمنهجي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع1، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة 2002.

هو مفهوم الأصل والفرع. وقد جعل "الخليل" و"سيبويه" النظام اللغوي كله أصولا وفروعا، والفرع هو الأصل مع زيادة، أي مع شيء من التحويل، ويحصل ذلك بتفريع بعض العبارات عن عبارات أخرى تعتبر أبسط منها وبالتالي أصولا لها. ويبين ذلك النحاة العرب باللجوء إلى منهج علمي هو ما يسمونه حمل الشيء على الشيء أو إجرائه عليه بغية اكتشاف الجامع الذي يجمعها، وهو البنية التي تجمع بين الأنواع الكثيرة من الجمل، كما توضحها المتتاليات من الجمل التي أوردها سيبويه في كتابه[30]:

- مررت برجلٍ راكبٍ وذاهبٍ.
- مررت برجلٍ راكبٍ فذاهبٍ.
- مررت برجلٍ راكبٍ ثم ذاهبٍ.
- مررت برجلٍ راكعٍ أو ساجدٍ (بمنزلة إما وإما...).
- مررت برجلٍ راكعٍ لا ساجد (إما غلط فاستدرك وإما نسي فتذكر)...الخ.

وينطلقون في ذلك من أبسطها وهي التي تتكون من عنصرين؛ "زيد منطلق"، فيحملون عليها جملا أخرى تكون فيها زيادة بالنسبة إلى الجملة البسيطة، بحيث تظهر بذلك كيفية تحوّل النواة بالزوائد، وهي في الحقيقة مقارنة بنوية أساسها تطبيق مجموعة على مجموعات أخرى طردا وعكسا. فالمذكر مثلا أصل والمؤنث فرع، والمفرد أصل والمثنى والجمع فرع عليه، والمكبّر أصل والمصغّر فرع عليه، والجملة المبنية للفاعل أصل للجملة المبنية للمفعول. وقد اعتبر "تشومسكي"[31] الجملة المبنية للفاعل نواة ومنطلقا للتفريع.

والأصل عند الأئمة النحاة هو ما بُني عليه ولم يبن على غيره، ولا يحتاج إلى علامة ليتميز بها عن فروعه فله العلامة العدمية ∅ (Marque zéro)[32].

والنحو العربي العلمي، لا التعليمي أو الفلسفي، هو مجموع المثل والقواعد التي يمكن أن تفرع بها وعليها جميع الإمكانات التعبيرية الخاصة بالوضع العربي. فهذا الجانب الديناميكي للغة تجهله اللسانيات البنوية التقليدية لأنها تركز كل اهتمامها على تشخيص الوحدات في ذاتها وبالاعتماد على تقابل الصفات الذاتية التي تميزها عن غيرها[33].

6.2. مفهوم الحركة

مفهوم غامض في أذهان كثير من المستشرقين واللغويين العرب الذين لم يتجردوا بعد من التصورات التي ورثها الغربيون عن الحضارة اليونانية. ووجه الغموض في هذا المفهوم راجع

---

30 سيبويه، الكتاب، ج1، ص429، 430.

31 هذا اللساني المشهور له فضل كبير على اللسانيات لأنه حول وجهة البحث اللغوي عما كانت عليه، فأدخل في التحليل مفهوم التفريع والتوليد والتحويل، كما حول الهدف من البحث اللساني في حد ذاته من التعليق السكوني البسيط على بعض التركيبات اللغوية إلى الاهتمام بتحديد المعرفة اللغوية عند المتكلم السامع وشرحها. انظر، مازن الوعر، المرجع السابق، ص71، 72.

32 عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، المبرز، ع2، الجزائر، 1993.

33 عبد الرحمن الحاج صالح، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية.

إلى عدم تمييز هؤلاء بين الحركة كصوت مسموع (أي مصوت) لا يقوم مقام الحرف ولكنه من جنسه، ولذلك سميت حروفا صغيرة، والحركة التي تمكن من إخراج الحرف ووصله بغيره، والخروج منه إلى حرف آخر. وهذا هو المفهوم الذي يقصده القدماء من الحركة. قال الرماني في شرحه لكتاب "سيبويه": "الحركة تمكن من إخراج الحرف، والسكون لا يمكن من ذلك" وقال أيضا: "وإذا تحرك الحرف اقتضى الخروج منه إلى حرف آخر"[34]، ومعنى ذلك أن الحرف لا يحدث إلا في مدرج صوتي، أي في سياق متسلسل[35].

وقال ابن جني: "... لأن أصل الإدراج للمتحرك إذ كانت الحركة سببا له وعونا عليه"[36]. وعلى هذا الأساس، فإن الحركة عند العلماء الأوائل هي الدفعة والنقلة العضوية والهوائية التي تهيئ المتكلم لما بعدها، إذ يحتاج إليها للانتقال من مخرج حرف إلى مخرج حرف آخر، وكذلك من كلمة إلى كلمة أخرى[37]. فهي إطلاق بعد حبس، عكس السكون الذي هو وقف لا يستلزم الانتقال إلى حرف آخر.

7.2. مفهوم العامل

يعد العامل، أو العمل النحوي[38] الفكرة الجوهرية التي تتأسس عليها نظرية النحاة العرب، ويعني القدماء بالعامل العنصر اللغوي الذي يؤثر لفظا ومعنى على غيره كجميع الأفعال العربية وما يقوم مقامها، فهو معقول من منقول[39]. فكل حركة من الحركات الإعرابية التي تظهر على أواخر الكلم، وكذلك كل تغيير يحدث في المبنى والمعنى إنما يجيء تبعا لعامل في التركيب، فلا نجد معمولا إلا وتصور له العلماء الأوائل عنصرا لفظيا أو معنويا هاما هو العامل الذي يكوِّن مع معموله زوجا مرتبا (couple ordonné). وههنا ينطلق النحاة من العمليات الحملية الإجرائية (حمل الشيء على الشيء) فيحملون مثلا أقل الكلام مما هو أكثر من لفظة وينطلقون من الجملة التي تتكون من عنصرين، كما سبق وأن أشرنا، نحو: زيد منطلق، ثم يشرعون في تحويلها بالزيادة مع إبقاء النواة (كما فعلوا باللفظة) للبحث عن العناصر المتكافئة، أي البنية التي تجمع وتشترك فيها الأنواع الكثيرة بل اللامتناهية من الجمل[40].

---

34 انظر مفهوم الحركة عند علماء العرب في بحوث د. عبد الرحمن الحاج صالح، منها:
- تكنولوجيا اللغة والتراث اللغوي العربي الأصيل.
- الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية.

35 " قال "الخليل" يوما وسأل أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا الكاف التي في لك، والكاف التي في مالك، والباء التي في ضرب ؟ فقيل له : نقول باءْ، كافْ، فقال لهم : إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف. وقال: أقول كَهْ، وبَهْ، فقلنا: لِمَ ألحقت الهاء، فقال: رأيتهم قالوا: عَهْ فألحقوا هاء حتى صيّروها يستطاع الكلام بها " الكتاب، ج3، ص 320.

36 ابن جني، الخصائص، تحق محمد علي النجار، دار الكتاب، بيروت(د.ت)، ج1، ص58.

37 الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحق مازن المبارك، ط5؛ بيروت: دار النفائس، 1986، ص70، 71.

38 ترجم الأوربيون مصطلح "عمل" العربي، في القرن 13م إلى اللاتينية Regere بمعنى عَمِلَ في اللفظ الإعراب. ومنها جاءت كلمة Rection في النحو الأوروبي، ثم قلّ اهتمام اللسانيات بهذا المفهوم حتى أحياه من جديد "تشومسكي" باسم Government. لمزيد من المعلومات انظر، د. عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه.

39 السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تح د. أحمد محمد قاسم، ط1؛ القاهرة: مطبعة السعادة، 1976، ص3.

40 عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانيّة الحاليّة في العالم العربي، ص384- 388.

هذا ويصرح "سيبويه" في "الكتاب" أن عنصرين اثنين لا تكاد تخلو منهما أبدا البنية اللفظية للجملة، وهما العامل والمعمول الأول[41].

وتجدر الإشارة أن موضع العامل ليس له مكان معين في مدرج الكلام، بل هو موضع في داخل المثال أو الحد. فالعامل شيء، ومحتواه شيء آخر (كما أن الموضع شيء، وما يدخله من الزوائد شيء آخر). فقد يكون في موضع العامل "فعل تام" أو "فعل ناسخ" أو "إن وأخواتها" أو تركيب آخر[42] كما في المصفوفة التركيبية الآتية:

	موضع العامل	موضع المعمول الأول	موضع المعمول الثاني	
الابتداء (الخلو من العوامل اللفظية)	∅	زيد	منطلق	الأصل والنواة
عوامل لفظية	إن كان حسبت أعلمت عمرا	زيدا زيد زيدا زيدا	منطلق منطلقا منطلقا منطلقا	
	قام	زيد	...	الأصل
	ضرب ضَرَبْـ	زيد ـتُ	عمرا عمرا	

عمليات تحويلية للبحث عن العناصر المتكافئة

نستنتج من خلال هذا الجدول الحملي ما يلي:

أ – أن النظرية النحوية العربية القديمة تنطلق من العمليات الحملية، فيجري النحاة تحويلات بالزيادة على النواة (أقل الكلام) كما فعلوا باللفظة للكشف عن العناصر المتكافئة داخل المصفوفة (الزمرة).

ب – أن العامل أو المعمول الأول شيء، ومحتواه شيء آخر، ففي العمود الأول يدخل عنصر قد يكون كلمة أو لفظة أو تركيبا وله تأثير على بقية البناء، لذلك سمي عاملا.

ج – إثبات قانون مهم وهو امتناع تقديم المعمول الأول على عامله، إذ إن عبارة "سيبويه": أول ما تشغل به الفعل"[43] تستلزم كما يقول د. عبد الرحمن الحاج صالح شيئا آخر وهو استحالة تقدم المعمول الأول على عامله مهما كان، فإذا تقدم تغيّرت بنية الجملة دون معناها الوضعي"[44].

د – جواز التقديم والتأخير ما عدا المعمول الأول بالنسبة إلى عامله وفي حدود معينة.

هـ – قد يخلو موضع العامل من العنصـــر المشار إليه بالعلامة ∅، فهذا هو الذي يسميه

---

41 سيبويه، الكتاب، ج1، ص23.

42 عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص13.

43 سيبويه، الكتاب، ج1، ص80.

44 فجملة قام عبد الله ≠ عبد الله قام، انظر ما ردّ به "المبرد" على الأخفش والكوفيين الذين أجازوا تقديم المعمول الأول على عامله، انظر المبرد، المقتضب، تح محمد عبد الخالق عضيمة، بيروت (د.ت): عالم الكتب، ج4، ص128.

النحاة بالابتداء، ومعناه عدم التبعية التركيبية، وليس معناه بداية الجملة كما يعتقد البعض[45].

فمفهوم العمل إذن، هو مفهوم إجرائي يمكن أن تفرع عليه وبه جميع الإمكانات التعبيرية الخاصة بالوضع اللغوي العربي. وقد تفطن "تشومسكي" إلى أهمية هذا المفهوم (العامل النحوي) في المنهج التحويلي على صورة لا تبتعد كثيرا على الصورة التي جاءت في النحو العربي[46] *.

8.2. التمييز الواضح بين الكلام كبنية والكلام كخطاب

لم يقتصر الفكر النحوي الخليلي في تحليلاته للغة وتفسير ظواهرها على الجوانب الشكلية (اللفظية) فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الجوانب الوظيفية الإبلاغية، فتحدث النحاة عن الكلام الذي تحصل به الفائدة، وعن معاني النحو وما يتيحه لصاحب الخطاب من طرق متنوعة للتعبير عن المعاني المقصودة[47]. فمادة الدراسة النحوية عندهم هي الحديث (لا الحكم) من حيث هو تبادل لفظي ذو فائدة، يتم بين قطبين أساسيين هما المتحدث والمتحدث إليه. ولقد ربط "سيبويه" والنحاة الأوائل، عند وصفهم للغة، بين كل ظاهرة من الظواهر الصرفية والنحوية (الإفرادية والتركيبية) بما يمكن أن تؤديه من معنى، لا من حيث اللغة، ولكن من حيث البلاغة والفائدة. وأوضح دليل على ذلك هو اهتمامهم (أي النحاة) بمفهوم الجملة، وتمييزهم الصريح والحاسم بين الكلام كبنية والكلام كخطاب[48].

ومن الجوانب التي اهتمت بها النظرية الخليلية الحديثة، تنبيه الباحثين إلى مفهوم الجملة وما يقتضيه التصور العربي لها. إذ يخطئ، في رأيها، من يعتقد أن "الكتاب" الذي اشتمل على أمهات المسائل اللغوية، والذي شهد له العلماء بالنضج والاكتمال، خال من مفهوم الجملة. فخلو الكتاب من المصطلح لا يعني بالضرورة خلوه من المفهوم كما أن خلو كتاب "سوسير" من كلمة بنية لا يعني أبدا إهماله لمفهوم البناء، فاستعماله لمصطلح نظام يتضمن مفهوم البنية.

حقيقة إن "سيبويه" لم يستعمل مصطلح جملة، ولكن العلماء لاحظوا أنه يسميها كلاما، وإذا دقق القول استعمل مصطلح "الكلام المستغنى" ويقصد به: قطعة الكلام المستقلة لفظا ومعنى، والتي يحسن بالمتكلم أن يسكت عند انتهائها لأنها تشكل وحدة تبليغية يستفيد بها المخاطب علما

---

[45] من هؤلاء مثلا :
Julia Kristeva, Le langage cet inconnu: Une initiation à la linguistique, Paris: Ed du Seuil, 1981, p.133.

[46] عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث؛ بحث في المنهج، بيروت: دار النهضة العربية، 1966، ص148.

* يعدّ نوام تشومسكي Noam Chomsky قطبا من أقطاب اللسانيات الحديثة، ولد في فيلادلفيا سنة 1928. درس المرحلة الجامعية الأولى في بنسلفانيا، ثم حصل على درجة الماجستير في الجامعة ذاتها سنة 1951 ببحث قدمه عن اللغة العبرية الحديثة، ثم حصل على درجة الدكتوراه سنة 1955 من الجامعة ذاتها ببحث يحمل العنوان الآتي: البنية المنطقية للنظرية اللغوية "The logical structure of linguistic theory". ولم تنحصر معلومات تشومسكي في اللسانيات، بل درس الرياضيات والفلسفة والمنطق الصوري واللسانيات التاريخية، وقد كان لهذه العلوم أثرها الواضح على تفكيره في بناء نظريته، انظر د. أحمد خليل عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها منهج وتطبيق، ط1، ص48 – 69.

[47] عبد الرحمن الحاج صالح، "التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية"، مجلة المبرز، ع 6، ديسمبر 1995.

[48] لمزيد من الاطلاع حول هذه النقطة، انظر بحث د. عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، المبرز، ع2، ديسمبر 1993.

معينا، فمقياس الجملة المفيدة أو علامتها عند "سيبويه" هو الفائدة (الإفادة)[49].

ومعلوم أنه لا فائدة إلا إذا كان الكلام تاما، أما الكلم المفردة فلا تتعلق بها الفائدة وإن تعلقت بها الدلالة على معنى مفرد (لفظي). قال الزجاجي: "... الاسم يدل على مسماه ... ولا يحصل منه فائدة مفردا حتى نقرنه باسم مثله، أو فعل أو جملة، وإلا كان ذكرك له لغوا وهذرا غير مفيد، وكذلك الحرف إذا ذكرته دلَّ على المعنى الموضوع له، ثم لم تكتمل الفائدة بذكرك إياه حتى تقرنه بما تكمل به فائدته، فهو والاسم في هذا سواء، لا فرق بينهما"[50].

وعليه فإن لفظة "كلام" كما لاحظ العلماء كافية الدلالة على مفهوم الجملة المفيدة عند "سيبويه". ومن يرجع إلى "الكتاب" يلاحظ أنها تواترت عشرات المرات من خلال العناصر الأساسية لتكونها وهما المسند والمسند إليه، والمبتدأ والمبني عليه[51].

وعلى الرغم من ظهور مصطلح "الجملة" في كتاب "المقتضب" للمبرد (ت:285هـ)[52] إلا أن لفظة كلام ظلت سائدة تنافس المصطلح الجديد، حيث استعملها بعض اللغويين والنحاة، ومن ذلك مثلا قول ابن جني عند تعريفه للكلام:" كل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه نحو، زيدٌ أخوك، وقام محمد ... وصَهْ ومَهْ...وأفّ... "[53]. وقال "ابن آجروم" في مقدمة "الآجرومية": "الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع"[54]، وهذا الذي يسميه النحويون جُملة.

ومن مظاهر الأصالة والإبداع، أيضا، في الفكر النحوي الخليلي هو تمييز القدماء بين جانبين اثنين، عند تحليلهم للغة، ليس بينهما أي تناظر كما يقول د. عبد الرحمن الحاج صالح، ويتمثل هذان الجانبان في:

1 – الجانب اللفظي الصوري الذي يخص اللفظ في ذاته وهيكله وصيغته، أي المعنى الموضوع له بقطع النظر عما يؤديه من وظيفة في الخطاب غير الدلالة الوضعية (دلالة اللفظ)[55].

2 – وجانب الخطاب ويتمثل في كيفية استعمال تلك الألفاظ ومدلولاتها في عملية الإفادة، أي الإعلام والمخاطبة وتبليغ الأغراض بين ناطق وسامع في موقف اجتماعي حيّ يُعتبر "المتكلم" جزءا منه إلى جانب السامع والكلام ...[56].

---

49 عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص8، 9.

50 الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، ص49.

51 سيبويه، الكتاب، ج1، ص23– 125، 126– 238، 239– 240، ج2، ص88، 90، 91– 124.

52 حيث يقول: " هذا باب الفاعل، وهو رفع، وذلك قولك: قام عبد الله، وجلس زيدٌ، وإنما كان الفاعل رفعا لأنه هو والفعل جملة، يحسن عليها السكوت، وتجب بها الفائدة للمخاطب ". ج1، ص8.

53 ابن جني، الخصائص، ج1، ص17.

54 ابن آجروم المغربي، الأجرومية في مبادئ علم العربية، ص6.

55 وتتصف هذه الدلالة الوضعية بالتعدد والتنوع والاحتمال، عندما تكون خارج السياق فالكلمة المرفوعة مثلا، قد تكون مبتدأ وخبرا وفاعلا ونائب فاعل واسم كان وخبر إن وتابعا للموصوف.

56 وبناء على هذا التمييز يرى العلماء، أن أعظم خطأ يرتكبه النحو العربي التقليدي (نحو ابن مالك)، وكذلك المدرسة البنوية في اللسانيات الغربية الحديثة هو انطلاقها في دراسة اللغة، وفحص معطياتها من الكلام الذي تمّ إنتاجه، أي بعد أن

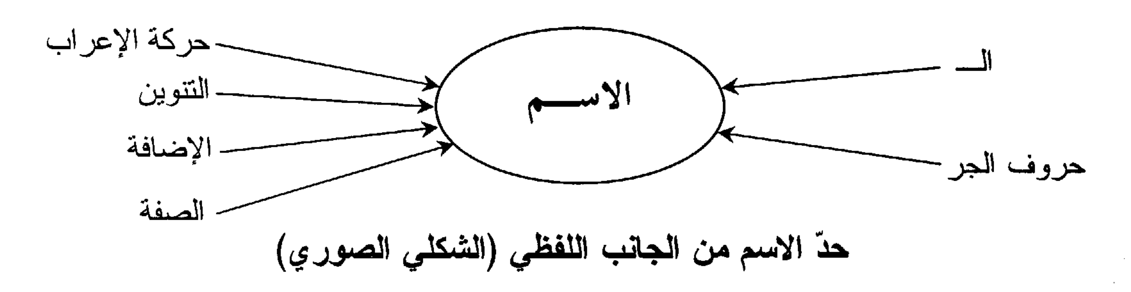
وأوضح دليل على سلامة هذا التصور، في منظور د. الحاج صالح[57]، هو عجز النحويين المتفلسفين عن تحديد مفهوم الاسم في مقابل الفعل والحرف، حيث حددوه بتعريفات كثيرة، تأتلف حينا وتختلف أحيانا، ولا يُعلم تعريف سلم من المعارضة والنقد[58].

ولكي يضبط تعريف الاسم ضبطا دقيقا، فيسلم تحديده من التناقض يرى بعض اللسانيين[59] أنه لا بد من مراعاة ما يلي:

أولا: تحديد نوع الاسم، هل هو اسم مطلق، أم اسم مضارع للفعل والحرف، وهل هو متمكن تجري عليه حركات الإعراب، أو هو مستحق لها (أي متمكن أمكن أو متمكن غير أمكن...)

ثانيا: تحديد الجانب الذي يحدد فيه، هل يحدد في الجانب الوظيفي الدلالي الخاص بالإفادة، أم يحدد في الجانب اللفظي الصوري الخاص بالبنية والهيكل. فالاسم من حيث وظيفته الدلالية والإفادية (أي من حيث دلالته على معنى) "هو لفظ يدل على شيء لا يكون حدثا مع زمان"، ثم هناك "الاسم المطلق" والاسم المضارع للحرف والفعل. "فالاسم المطلق" يدل على ذات أي على كل شيء يصح الإخبار عنه[60] (بمعنى قابل أن يكون متحدثا عنه).

أما من الجانب اللفظي الصوري، فالاسم كلمة أو عنصر قابل أو يحتمل دخول الزوائد عليه يمينا وشمالا بحسب درجة تمكنه أو عدم تمكنه[61] إذ يصلح أن تدخل عليه "الـــ" وحروف الجر والتنوين والإعراب، ويمكن أن يضاف وأن يوصف... والشكل التالي يوضح ذلك:



حدّ الاسم من الجانب اللفظي (الشكلي الصوري)

يتضح من خلال الرسم السابق أن زوائد اللفظة الاسمية تختلف عن زوائد اللفظة الفعلية،

يكون منتوجا لسانيا حقيقيا، فتهتم بسلوك السامع دون أي عناية بسلوك المتكلم وأحوال إحداث الخطاب. انظر، عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، المبرز، ع2، ص19. وكذلك التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية، المبرز، ع6، ص27.

[57] عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص9، 10.

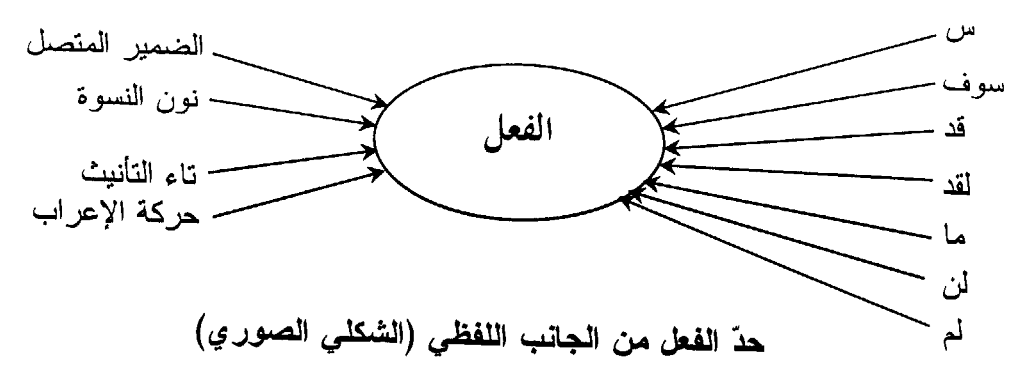
[58] انظر، الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، ص48-51.

[59] عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع السابق، ص9، 10.

[60] كما يقول الأخفش سعيد بن مسعدة: "ما جاز فيه نفعني وضرني"، يعني ما جاز أن يخبر عنه، انظر الزجاجي، الإيضاح، ص49.

[61] لأن العلامات التي يحتمل دخولها عليه (السوابق واللواحق) لا تصلح مجتمعة لجميع أنواع الأسماء، فبعضها قد يصلح لبعض الأسماء دون البعض الآخر، فالجر مثلا يصلح علامة ظاهرة للكثير من الأسماء، ولكنه لا يصلح لضمائر الرفع "كالتاء في نجحتُ"، والتنوين كذلك يصلح لكثير من الأسماء المعربة ولكنه لا يصلح للممنوع من الصرف وكثير من المبنيات.

فالأولى، كما رأينا، تقبل دخول حروف الجر، والتنوين، والإضافة، والْ التعريف. والثانية قابلة لدخول السين، وسوف، وأدوات النفي، والضمائر المتصلة، وتاء التأنيث، وحركة الإعراب... كما في الشكل الآتي:



حدّ الفعل من الجانب اللفظي (الشكلي الصوري)

ويبدو تعمق القدماء في هذه المسألة (اللفظ الدال ومدلولاته الوضعية من جهة، واستعمال اللفظ ومدلولاته في عملية الإفادة) من خلال تحليلهم لوحدات تبدو في الظاهر، ولأول وهلة قطع كلامية غير قابلة لمزيد من التحليل والتفكيك لشدة التحام عناصرها المكونة لها، ومن ذلك مثلا ما استدلّ به "ابن جني" من أصناف الدلالات اللفظية والصناعية والمعنوية لتحليل الكلمة لفظا وصيغة، سواء كانت فعلا أو اسما، ثم تعيين وحداتها الدالة الدنيا في كل منها حيث يقول: "... ألا ترى إلى قام ودلالة لفظه على مصدره، ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله..." ثم يتبع هذه الفكرة بعد انتهائه من شرحها بفكرة أخرى فيقول: "... وكذلك اسم الفاعل، نحو قائم وقاعد؛

- لفظه يفيد الحدث الذي هو القيام والقعود.
- وصيغته وبناؤه يفيد كونه صاحب الفعل.

وكذلك قطّعَ وكَسَّرَ، فنفس اللفظ ههنا يفيد الحدث، وصورته [أي صيغته وبناؤه] تفيد شيئين: أحدهما الماضي، والآخر تكثير الفعل. كما أن ضَارَبَ يفيد بلفظه الحدث، وببنائه الماضي وكون الفعل من اثنين [أي يدل على المشاركة] وبمعناه على أن له فاعلا "[62].

نستنتج من هذا التحليل العميق، أن الكلمة، سواء كانت اسما أو فعلا، تشمل وحدات دنيا دالة، هي المادة الأصلية والصورة (أي الوزن والصيغة).

فكلمة "مفتاح" مثلا تتكون من:
- مادة (ف.ت.ح) التي تدل على الحدث(المعنى الوضعي).
- صيغة (مفعال) التي تدل على اسم الآلة.

وكذلك ضَرَبَ، وضَارب، ومَضْرُوب، تتكون من مادة أصلية هي (ض.ر.ب) التي تدل على

[62] ابن جني، الخصائص، ج3، ص98- 100.

الحدث (الضرب) في الوضع اللغوي، ومن أوزان أو صيغ هي:

- فعَلَ التي تدل على حدث منقطع.
- وفَاعِل التي تدل على اسم الفاعل.
- ومَفْعُول التي تدل على الذي وقع عليه الفعل (اسم المفعول). وبناء على هذا يمكن القول: إن صيغة (فَعَلَ × ض.ر.ب) غير صيغة (يفعل × ض.ر.ب) غير صيغة (فاعل × ض.ر.ب)، وأن الكلمة أو اللفظة هي نتيجة لتركيب هاتين الوحدتين، المادة والصيغة كما في الرسم البياني الآتي[63]:

/فَعَلَ/ ⟵ الصيغة (البناء) = زمان منقطع

↓

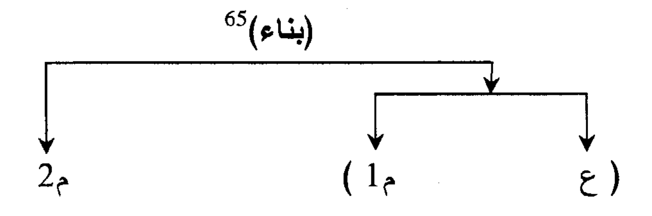
نجح

↓

/ن.ج.ح/ ⟵ المادة = حدث (النجاح)

وتجدر الإشارة أن تمييـز النحـاة الأوائل بين الجانب اللفظـي البنوي وبين الجانب الوظيفي الإبلاغي لم يقتصر على المستوى الإفرادي فحسب، بل تعداه إلى المستوى التركيبي، ليشمل الجملة المفيدة المستغنى عنها بمصطلح "سيبويه".

فصيغة الجملة العربية اللفظية، في رأي د. الحاج صالح[64]، هي سياق من العامل زائد لمعمول الأول، يكونان زوجا مرتبا هي اللفظة المبني عليها، التي يبتدئ بها الكلام، ويبنى عليها المعمول الثاني (الذي يشغل موضع اللفظة المبنية). كما يمثلها الرسم الآتي:



أصغر ما يبنى من الكلام (نواة).

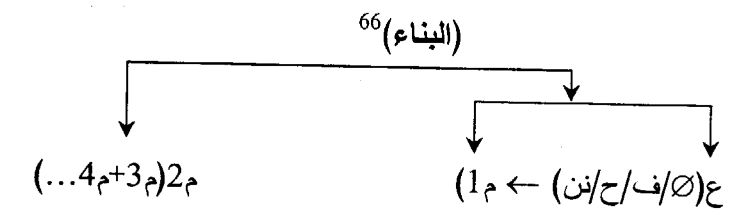
---

[63] لمزيد من المعلومات انظر:
A. Hadj Salah, Linguistique arabe et linguistique générale, pp. 78 -140.

[64] عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص 12، 13. وانظر كذلك، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحلية في العالم العربي، ص385، 386.

[65] (ع = عامل) و(م = معمول).

وتدخل على هذه النواة زوائد مثل التي تدخل في بنية الكلمة، ويمثل الأستاذ الحاج صالح للعلاقة القائمة بين هذه الوحدات التركيبية (النواة + الزوائد) بهذه الصيغة:



ويتبين بهذا الشكل أن العناصر التركيبية هي عناصر خاصة مجردة، كما أن هناك عناصر أخرى أو زوائد (تدخل وتخرج) على النواة التركيبية، وتتمثل في المخصصات كالمفاعيل والحال وغيرها[67]. وللإشارة فإن هذه البنية اللفظية هي التي يعبر عنها النحاة مرة بترتيب اللفظ ومرة بالتغيير الإعرابي[68].

ويحذر الدكتور الحاج صالح من خطر التخليط في التحليل بين هذه البنية اللفظية (الهيكل البنوي للجملة) وصيغة الخطاب التي تتكون من مسند ومسند إليه (وهما ما لا يستغنى واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدّا)[69]، وإلا لما احتاج النحاة الأوائل إلى تسمية أخرى مثل، المبتدأ و"المبني عليه"، ولما احتاجوا إلى تصور عنصر لفظي هام هو العامل وما يتعلق به من معمول.

وعليه، إذا كانت الصيغة الخاصة باللفظ تُوظَّف فيها مصطلحات العامل والمعمول الأول والثاني والفضلة، فإنه يستعمل للحديث عن الصيغة الخاصة بالخطاب المسند والمسند إليه والمخصصات... ويظهر هذا التصور بجلاء من خلال حديث النحاة عن الجملة "ذات التركيب المزدوج"، "كالشرط" مثلا، فإنه من الجانب اللفظي، تعدّ "جملة الشرط" أو جملة "جواب الشرط" تامتين تتوفر فيهما الشروط[70]، ولكن من حيث الخطاب والإفادة فهما (كل بمفردها) ناقصتان[71].

والخلاصة التي نخرج بها من خلال حديثنا عن تمييز النحاة الأوائل بين الكلام كبنية وبين الكلام كخطاب، أن هناك فرقا بين الأوضاع اللغوية الإفرادية والتركيبية (الصرفية والنحوية) وبين ظواهر الاستعمال لهذه الأوضاع، وإن تفسير بنية اللفظ باللجوء إلى اعتبارات تخص

---

66 (ع = عامل)، (∅ الابتداء المطلق)، (ف = فعل)، (نن = ناسخ)، (ح = حرف). انظر، خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص115.

67 المرجع نفسه، ص385، 386.

68 عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص16.

69 سيبويه، الكتاب، ج1، ص23.

70 لمزيد من المعلومات انظر الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، المبرز، ع2، ص15، 16.

71 وهو ما دفع ببعض المحدثين إلى اعتبار الشرط وجوابه أسلوبا لغويا يُكَوِّن جملة واحدة تعبر عن فكرة تامة، "فمهدي المخزومي" مثلا يزعم أن تقسيم الجملة ذات التركيب المزدوج (الشرط) إلى جملتين عند القدماء هو نتيجة للتحليل المنطقي الفلسفي الذي اصطبغ به بحثهم. انظر، كتابه في النحو العربي نقد وتوجيه، ص57.

الإفادة أو العكس؛ تفسير ظواهر الإفادة والتبليغ بالاعتماد على اعتبارات تخص اللفظ هو غلط فادح، وسبب لأوهام كثيرة كما يقول "د. الحاج صالح"[72]، لأن اللفظ في الوضع اللغوي يدل على معناه الموضوع له وعلى أكثر من معنى (أي أنه متعدد ومتغير ومحتمل خارج السياق)، أما في الخطاب الواحد الخاص فإن المتكلم لا يريد باستعماله إلا معنى واحدا.

وما يمكن استنتاجه من خلال عرضنا للمفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة هو قيمة "اللفظة" في مجال تحليل النظام اللغوي العربي وتشخيص وحداته، فهي أصغر وحدة في الخطاب أو الحديث، وعلى مستواها يتم اتحاد الوحدة اللفظية بالوحدة الإعلامية (الإفادة)، فهي المستوى المركزي أو المنوال اللساني الذي انطلق منه النحاة الأوائل في التحليل والتفسير إلى مستويات أخرى أكثر أو أقل (من اللفظة)، والجدول الآتي يبين المستويات التي توجد تحتها وفوقها:

المستوى 6	الحديث أو الخطاب
المستوى 5	↑ أبنية الكلام أو البنى التركيبية
المستوى 4	**↑ اللفظات (ج لفظة)**
المستوى 3	↑ الكلم أو الكلمات
المستوى 2	↑ الدوال (العناصر الدالة كالصيغة والمادة و العلامة غير الظاهرة (العدميّة))
المستوى 1	↑ الحروف
المستوى 0	↑ الصفات المميزة للأصوات

وتجدر الإشارة، ههنا، إلى أن الوحدات اللغوية المندرجة في كل مستوى من مستويات التحليل هي نتاج بناء لعناصر ووحدات المستوى الأدنى، تركب على شكل تفريعي إجرائي[73].

إن لهذا الإقرار "بقيمة اللفظة" في التحليل اللغوي العربي نتائج عظيمة ليس فقط على صعيد التحليل اللساني النظري، بل أيضا على مستوى تطبيقاته التربوية، إذ يمكن أن تستثمر نتائج هذا المفهوم عند اختيار المادة النحوية المراد تعليمها وكذلك عند ترتيبها وتحديد الكيفية التي ينبغي أن تعرض بها على المتعلمين[74] *.

الخلاصة

والخلاصة التي نخرج بها من خلال عرضنا التحليلي للمفاهيم والتصورات الأساسية للنظرية الخليلية، أن النحو عند "سيبويه" وشيوخه وتلاميذه منطق رياضي خاص مستنبط أوضاعا ومقاييس من واقع الاستعمال. فهو ثمرة أصول عديدة تفرعت منها فروعه وفصوله. وإن وجود

---

72 عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص16، 19.

73 خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص95.

74 خولة طالب الإبراهيمي، المرجع السابق، ص99.

* حاول بعض الباحثين تطبيق هذه المفاهيم في تعليم اللغة العربية، توجد هذه المحاولة في عدة رسائل منها رسالة الدكتوراه لخولة طالب الإبراهيمي التي ناقشتها سنة 1991، وكذلك رسالة صليحة مكي (ماجستير) حول اللفظة الفعلية، ناقشتها سنة 2002. كما حاول بعضهم تطبيق نموذج اللفظة على بعض الأفعال الفرنسية. انظر، المرجع نفسه، ص144. (الهامش 28).

هذا الأثر المنطقي لدليل على مكانة الجانب العقلي فيه، وهو جانب كان موجودا إلى الجانب النقلي، وقد عاد هذا الجانب ضروريا في البحث اللغوي عند التحويليين، لأنه أداة أصيلة من أدوات بناء العلم، بدونه يتحول علم النحو إلى مجرد جمع وتصنيف.

وخلافا لمـــا يدّعيــه دعاة الإصلاح والتجديد، فإن صعوبة العامل النحوي، قضية مزيفة لا أســاس لها مـــن الصحة، ونظريـــة النحـــاة الأوائـــل تتميز بالموضوعية والشمولية والتماسك والاقتصاد، وفكرة العامل ليست مما يغضُّ من شأن النحاة الأوائل، بل هي مما يعلي شأنهم، ويُكبر تفكيرهم[75]، وهي من أخطر النظريات التي سيكون لها دور عظيم في تطوير معلوماتنا حول الظواهر اللغوية، لا سيما وأن لديها قدرة عجيبة وقابلية واسعة للصياغة الرياضية[76]. وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن اللسانيات الغربية لو انتبه أصحابها إلى نظام العامل في النظرية النحوية العربية القديمة لكانت اللسانيات العامة على غير ما هي عليه، بل لعلها كانت تكون قد أدركت ما لا تدركه إلاّ بعد أمد[77].

[75] Julia Kristeva, Le langage cet inconnu : Une introduction à la linguistique, pp. 129-134.

[76] عبد الرحمن الحاج صالح، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية، ص26، 27.

[77] عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ط2؛ ليبيا: الدار العربية للكتاب، 1986، ص23.

المصادر والمراجع

باللغة العربية

ابن آجروم، المغربي، الآجرومية في مبادئ علم العربية.

ابن جني، الخصائص، الجزء1، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب، بيروت، (د.ت).

الإبراهيمي، خولة طالب، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000.

ـــــ، رسالة الدكتوراه ناقشتها سنة 1991.

الوعر، مازن، حول بعض القضايا الجدلية لنظرية القواعد التوليدية التحويلية، مجلة اللسانيات، العدد 6، الجزائر، 1982.

الحاج صالح، عبد الرحمن، النحو العربي ومنطق أرسطو، مجلة كلية الآداب، العدد1، جامعة الجزائر، 1964.

ـــــ، النظرية الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، وقائع ندوة تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، ط1، دار الفكر الإسلامي، المغرب، 1987.

ـــــ، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية، اتحاد الجامعات العربية، ندوة تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية.

ـــــ، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية.

ـــــ، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي.

ـــــ، الجملة في كتاب سيبويه، المبرز، العدد 2، الجزائر، 1993.

ـــــ، في النحو العربي نقد وتوجيه.

مكي، صليحة، رسالة ماجستير حول اللفظة الفعلية، نوقشت سنة 2002.

سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ج1، دار الجيل، الطبعة 1، بيروت، 1991.

عمايرة، خليل أحمد، في نحو اللغة وتراكيبها منهج وتطبيق، عالم المعرفة، الطبعة 1، السعودية.

الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، ط5، بيروت، 1986.

المبرد، المقتضب، ج4، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).

المسدي، عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، الطبعة2، ليبيا، 1986.

السيوطي، الاقتـــراح فـــي علم أصـــول النحو، تحقيق د. أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، الطبعة1، القاهرة، 1976.

الراجحي، عبده، النحـــو العـــربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، دار النهضة العربية، بيروت، 1966.

باللغات الأجنبية

Hadj Salah, A., Linguistique arabe et linguistique générale: Essai de méthodologie et d'épistémologie du 'ilm al-'Arabiyya, Sorbonne, Paris, 1979.

Kristeva, Julia, Le langage cet inconnu: Une initiation à la linguistique, Ed. du Seuil, Paris, 1981.